

خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٠٧ / ٠٢ / ٢٠٢٥

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، آمين

كنت بصدد ذكر غزوة خيبر، وتفصيل خروج النبي ﷺ إلى خيبر كالآتي:

خرج من المدينة جيش الصحابة المكون من ألف وستمئة مخلص وكان فيه مئتا فارس، ولكن قبل المغادرة أرسل النبي ﷺ تحت قيادة عبادة بن بشر الأنصاري فريقاً من العيون وكانت مهمته حراسة الطرق أمام الجيش واستطلاع الأوضاع. ومن أجل الإمام بطرق خيبر تم استئجار دليلين بعشرين صاعاً من التمر أي حوالي خمسين كيلو، ويقال إن اسميهما حُسَيْلُ بن خَارِجَةَ الْأَشْجَعِيُّ وعبد الله بن نُعَيْمٍ، وكلاهما كانا ينتميان إلى قبيلة أشجع.

وخلال السفر من المدينة إلى خيبر نزل الجيش بالصهباء، فحان وقت الصلاة وتم أداؤها هناك، فقد روي في البخاري أن النبي ﷺ صَلَّى الْعَصْرَ بِالصَّهْبَاءِ ثُمَّ دَعَا بِالْأَزْوَادِ فَلَمْ يُؤْتِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَعْسَكِ إِلَّا بِالسَّوِيقِ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَامَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَمَضْمَضَ وَمَضْمَضْنَا ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ. (صحيح البخاري، كتاب الوضوء)

وكان بين الصهباء وخيبر اثنا عشر ميلاً.

وقد حدثت أثناء هذا السفر بعض الحوادث التي تبين أنه حتى في مثل هذه الظروف الطارئة كان النبي ﷺ يهتم كثيراً بتربية أصحابه ويستمر في التركيز على غرس الصفات مثل الانضباط والطاعة فيهم. ومن هذه الحوادث شوهده في إحدى الليالي شيء يضيء أمام الجيش، فاهتم به النبي ﷺ، وبعد استطلاع الأمر علم أن جندياً من الجيش الإسلامي خرج من الجيش وكان يتقدم الجميع، وكانت خوذته تلمع في ضوء القمر، وكان اسمه أبو عبس. قال ﷺ: «أئتوني به». روى أبو عبس رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ خائفاً، فسأله النبي ﷺ عن سبب انفصاله عن الجيش وتقدمه، فاعتذر عن ذلك، فنصحه النبي ﷺ بالسير مع الجيش.

وبعد ذلك بدأ النبي ﷺ يحدثه، وكان من الصحابة الفقراء الذين لا يجدون ما يعينهم على السفر إلى هذه الغزوة، فكان قد جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، لا أجد زاداً لهذا السفر وليس في البيت من النفقة ما أعيل به أهلي. فأعطاه النبي ﷺ رداءً من ثيابه. فأخذ هذا الصحابي الحكيم هذا الرداء وذهب إلى السوق فأخبر الناس بأنه عطاء من النبي ﷺ فباعه بثمانية دراهم، فأنفق درهمين على مصاريف بيته، ودرهمين على زاده، وأربعة دراهم على عبادة لنفسه، والتحق بالجيش.

ففي أثناء الحديث مع أبي عبس سأله النبي ﷺ: "أين الرداء الذي أعطيتك إياه؟". قال: بعته، ثم ذكر كل ما ذكرناه آنفاً، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك من أبي عبس ابتسم، ثم قال: "يا أبا عبس! إنك الآن فقير جداً، والذي نفسي بيده، لئن عشت وعمرت طويلاً، لرأيت بعد فترة قصيرة أن معيشتك قد ازدهرت كثيراً، وازدادت نفقة أهلك، وكثرت لديك الدراهم والدنانير والعبيد، ولكن لن يكون كل هذا جيداً لك".

لقد رأى أبو عبس ﷺ تحقق نبوءة النبي ﷺ بأم عينيه، وكان يقول: والله لقد كان الأمر كما قال النبي ﷺ.

أما التعريف بأبي عبس فهو أن اسمه الحقيقي هو عبد العزى، فغيره النبي ﷺ إلى عبد الرحمن، وعاش سبعين سنة، وتوفي في خلافة عثمان ﷺ، وصلى عليه سيدنا عثمان ﷺ ودفن في البقيع. لقد ألقى النبي ﷺ الصلح إلى بني غطفان. وكما ذكر أن النبي ﷺ أثناء تقدمه نحو خيبر، نزل بالصهباء، وصلى فيه العصر والمغرب والعشاء، وكان يبعد عن خيبر اثني عشر ميلاً. وبعد الصلاة دعا النبي ﷺ الدليلين وأخبرهما بخطته للحرب، وقال: أريد أن أهاجم خيبر بطريقة أصبح حاجزاً بين أهل خيبر وبلاد الشام حتى لا يتمكنوا من الفرار نحو الشام، وفي نفس الوقت أريد أن أكون حاجزاً بينهم وبين قبيلة بني غطفان حتى لا يتمكنوا من تقديم أية مساعدة لهؤلاء اليهود.

فخرج به دليل اسمه حُسيل يمشي معه ووقف عند مكان يؤدي منه إلى وادي خيبر طرق عديدة مختلفة، فسأله النبي ﷺ عن أسماء هذه الطرق كلها، فأخبر أنها مثل حزن، وشاش، وحاطب، وغيرها، وكانت تحتوي كلها على معاني المشقة والضيق والغم والحزن، وكان اسم أحد الطرق مرحب، أي: الرحابة والاتساع؛ فاختاره النبي ﷺ تفاوضاً بإلقاء من الله تعالى. وقد علم النبي ﷺ أن بني غطفان وعدوا أهل خيبر بالمساعدة، وأنهم خرجوا بأربعة آلاف رجل بهدف مهاجمة الجيش الإسلامي قبل وصوله إلى خيبر. وكان بنو غطفان قد أرسلوا نحو خيبر جيشاً يبلغ حوالي ألف رجل بقيادة قادتهم المشهورين مثل طليحة بن خويلد، وعيينة بن حصن، وكان هذا الجيش قد وصل إلى حصون خيبر، بينما كان الجيش المكون من أربعة آلاف رجل في طريقه للتصدي للجيش الإسلامي، والقضاء عليه. تواصل النبي ﷺ مع بني غطفان وأرسل إليهم كتاباً كتب فيه أن يبقوا على الحياد في حرب خيبر،

وأبلغهم بوضوح أن هذا وعد الله لي أن ينصرتني على خير. يرى بعض المؤرخين أن النبي ﷺ أرسل إليهم أن يتوقفوا عن مساعدة اليهود ويسلموا، وإن فعلوا فسيتم تسليم خير بعد فتحها لهذه القبائل. ويقول البعض أن النبي ﷺ لم يضع لهم شرط قبول الإسلام، بل قال: يجب ألا يساعدوا أهل خير، وإن ابتعدوا عن هذا على الحياد، فسيعطيهم نصف المحصول السنوي لخير. لكن الغرور تملك قلوبهم بسبب جيشهم المكون من خمسة عشر ألف مقاتل في مقابل ألف وستمئة مسلم، وكذلك بسبب حصونهم المنيعة، مما جعلهم يرفضون قبول عرض النبي ﷺ.

فبعث النبي ﷺ سيد الخزرج وصحابيَّه المخلص سيدنا سعد بن عبادة إلى عيينة سيد عسكر غطفان، وكان في حصن مرحب سيد اليهود في خير، بصفته قائدا لجيش غطفان الذي كان قوامه ألف جندي، فلما علم عيينة أن سيدنا سعد جاءه مثلا للنبي الكريم ﷺ أراد أن يأتي به داخل الحصن، فنهاه عن ذلك مرحب قائلا يجب أن لا تأتي بمدوب المسلمين هذا إلى داخل الحصن، لئلا يتمكن من الاطلاع على الطريق المؤدي إلى الحصن، أما عيينة فكان يريد أن يدخل مندوب المسلمين لكي يطلع على قوتهم واستعدادهم ولوازم عسكرية ممتازة عندهم، لكن مرحب لم يوافق على ذلك، فقابل عيينة سيدنا سعدا خارج الحصن. فنقل له سيدنا سعد رسالة النبي ﷺ أن الله ﷻ قد وعدنا بفتح خير، عليك أن تعود من هنا وتكف عن الحرب، وبعد فتح خير ستعطون ثمر خير هذا العام كلها، فقال عيينة لسيدنا سعد، لن نتخلى عن حليفنا مقابل أي قيمة، ونحن نعلم كم تملكون من القوة. هؤلاء اليهود أصحاب الحصون المتينة، وإن عدد جنودهم الشباب أيضا كبير وهم يملكون السلاح أكثر منكم بكثير، إذا واجهتموهم فسوف تملكون جميعا، وهم ليسوا كقريش وغيرهم، الذين انتصرتم عليهم. وأضاف قائلا: انقل رسالتي إلى محمد ﷺ أيضا. فقال سيدنا سعد رداً على جواب عيينة الناجم من التكبر إني أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ سيأتينك في حصنك هذا، وعندها ستطلب العرض الذي قدمته لك الآن، لكنك حينها لن تعطى سوى السيف، أي ستكون الحرب. ويا عيينة قد رأيت أننا حللنا بساحة يهود يثرب، كيف مزقوا كل ممزق. قال ذلك لعيينة وعاد إلى النبي ﷺ وأخبره بما جرى بينه وبين عيينة كله، وقال بمنتهى الإخلاص يا رسول الله إن الله منجز لك ما وعدك ومظهر دينه فلا تعط هذا الأعرابي تمرة واحدة يا رسول الله لئن أخذته السيف لیسلمنهم وليهين إلى بلاده كما فعل ذلك قبل اليوم في الخندق، فكانت هذه القبيلة جاءت بجيش قوامه ستة آلاف مقاتل لدعم قريش، ثم هربوا من هناك.

نجد ذكر الرعب الإلهي وفرار غطفان أيضا، كان النبي ﷺ قد قال نصرت بالربع، وهذا تحقق مرة أخرى لجيوش غطفان، فكما ذكر كان جيش غطفان الذي قوامه أربعة آلاف جندي يأتي خلف الجيش الإسلامي ليمنعوا المسلمين من الوصول إلى خير، لكن قدر الله ظهر فعاد هذا الجيش الغطفاني فجأة إلى بيوتهم.

فقد ورد في كتب التاريخ والسير إن قائد جيش الغطفانيين سمع من خلفه نداء قويا حيث كان منذرٌ يُنذرهم قائلاً إن كتائب المسلمين أغارت على بيوتهم وأموالهم ومواشيهم، وأنهم يأسرون نساءهم وأولادهم ويأخذون أموالهم، فعادوا فوراً، ولم ينصروا اليهود، وكان ذلك نصراً من الغيب، وكان نداء إلهياً.

ورد اختلاف في بيان عدد جيش الغطفانيين، وكما ذكر من قبل في كتاب أن ألف مقاتل من بني غطفان كانوا قد جاؤوا إلى يهود خيبر لدعمهم بقيادة عيينة بن حصن، بينما ورد في غيره من كتب السيرة أن عددهم أربعة آلاف، وكذلك قد ورد في بعض كتب السير أن جيش بني غطفان المشتمل على أربعة آلاف نفر بقيادة عيينة عندما كان يسير إلى خيبر تكلم أفراد وفد النبي ﷺ مع عيينة في الطريق وبعده عادت هذه الكتيبة إلى بلادهم لرعب من الله ﷻ. هذا ما ورد في سيرة ابن هشام، أما النبي ﷺ فتابع سفره إلى خيبر ولما تراءت له حصون خيبر في ظلام الليل قال للصحابة، قفوا، فوقفوا كلهم. ثم قال: "اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَنَ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَنَ وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا أَذْرَيْنِ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرِ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ".

ثم سار رسول الله ﷺ حتى إنتهى إلى المترلة، وهي سوق لخيبر، صارت في سهم زيد بن ثابت - ﷺ - فعرس رسول الله ﷺ بها ساعة من الليل، وكانت اليهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتم وسلاحهم وعددهم، فلما أحسوا بخروج رسول الله ﷺ إليهم قاموا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً، ثم يقولون: محمد (ﷺ) يغزونا هيهات هيهات! فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم ليلاً لم يعرفوا ذلك حتى طلعت الشمس، فأصبحوا وقد خرجوا من حصونهم للعمل حاملين مساحيتهم ومكاتلهم^٢، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ ولوا هارين إلى حصونهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يغرب بهم حتى يصبح (فما كان ليغير عليهم ليلاً بل كان سيهاجم صباحاً) فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيتهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا محمد والله محمد والخميس^٣. فقال النبي ﷺ: "خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين".

^١ التعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة. (المترجم)

^٢ مساحيتهم: جمع مسحاة وهي من آلات الحرب. ومكاتلهم: جمع مكاتل وهو القفّة الكبيرة التي يحول فيها التراب وغيره. (المترجم)

^٣ الخميس: الجيش. (المترجم)

ولم يمكث ﷺ في المتزلة طويلاً بل قد غير مكان الجيش. وعن ذلك ورد أن رسول الله ﷺ وصل إلى خيبر فبات في المتزلة، وهناك أصبح.

جاءه الحباب بن المُنذر وقال: يا رسول الله، إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان من أمر أمرت به فلا نتكلم، وإن كان الرأي تكلمنا. فقال رسول الله ﷺ: "هو الرأي". فقال الحباب: يا رسول الله، دنوت من الحصون ونزلت بين ظهري النخل، والأرض مالحة. وأنا أعرف أهل النطاع^٤، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، ينالنا نبلهم، ولا نأمن من بيأتهم، يدخلون في خمر النخل فتحولوا يا رسول الله ﷺ إلى موضع آخر. فقال رسول الله ﷺ: "أشرت بالرأي، ولكن نقاتلهم هذا اليوم" فقال النبي ﷺ: "لقد أحسنت الرأي، لكننا سنقاتلهم اليوم على أي حال." ثم دعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة، الذي كان مسؤولاً عن الحراسة، وقال له: "انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم." فطاف محمد حتى أتى الرجيع، الذي يقع بين خيبر وقبائل غطفان، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وجدت لك منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: "على بركة الله". لكن بما أن النبي ﷺ كان قد قرر مسبقاً أن القتال سيكون اليوم من هذا الموقع، لذا بعد انتهاء المعركة مساءً، انتقل الجيش الإسلامي بأكمله إلى الموقع الجديد.

وكان هناك عدة حصون في خيبر، ومن المهم أن نبين تقسيمها. فيما يتعلق بالتقسيم الجغرافي لحصون خيبر، يمكن وصفها كما يلي، خاصة وأن المعركة كانت تدور حول هذه الحصون التي فتحت واحداً تلو الآخر. هناك اختلاف ليس فقط في عدد هذه الحصون ولكن أيضاً في أسمائها. كما أن بعض أحداث المعركة نُسبت إلى حصون معينة في بعض الكتب، بينما نُسبت إلى حصون أخرى في كتب أخرى.

في تاريخ اليعقوبي، ورد أن عدد حصون خيبر ستة، ولم يُذكر حصن ناعم فيها، رغم أن معظم كتب السيرة تذكر أن معركة خيبر بدأت من هذا الحصن أي ناعم. وفي الزرقاني، ورد أن عدد الحصون عشرة. وبالنظر إلى جميع هذه الكتب، يمكن القول أن منطقة خيبر كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام: النطاة، والشق، والكتيبة، وكانت تحتوي على ثمانية حصون موزعة كالتالي:

في النطاة كانت ثلاثة حصون: ناعم والصعب وحصن الزبير (كان يُسمى القُلع في الأصل، ثم أصبح من نصيب الزبير بن العوام فاشتهر باسم حصن الزبير). وفي الشق كان حصنان: أبي وبري (أو التزار كما ذكر البعض). وفي الكتيبة كانت ثلاثة حصون: القُموص والوطيح والسُلام.

وتفصيل الحرب كالتالي: ألقى رسول الله ﷺ كلمة وجيزة قبل بدء المعركة فقال مخاطباً الصحابة: "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله تعالى العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، فإذا لقيتموهم فقولوا:

^٤ أهل النطاع: أهل هذه الأرض (المترجم)

اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت". ثم أذن رسول الله ﷺ في القتال، وحثهم على الصبر، وأول حصن حاصره حصن ناعم الذي كان حصنا متينا. وقاتل النبي ﷺ يومه ذلك أشد القتال، وقاتله أهل النطاة أشد القتال، وترس جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ عليه يومئذ، وعليه درعان وبيضة^٥ ومغفر^٦، وهو على فرس يقال له الطرب، وفي يده قناة^٧ وترس. كان العدو يمطر السهام بكثافة، لكن المسلمين كانوا يطلقون السهام بجذر لقلة عددها، بل كانوا يلتقطون سهام اليهود الساقطة ويعيدون إطلاقها عليهم.

وفي هذه المعركة، ورد ذكر استشهاد محمود بن مسلمة. فقد تعب محمود بن مسلمة وأثقله السلاح، وأنهكه الحر، فجلس في ظل جدار حصن ناعم. يُقال إن الزعيم اليهودي مرحب رآه فدحرج عليه رحي، ويُقال أيضاً إن كنانة بن الربيع هو من ألقاها من الأعلى. أصابت الرحي رأسه فهشمت البيضة رأسه حتى سقطت جلدة جبينه على وجهه، وأتى به رسول الله ﷺ. فرد الجلدة فرجعت كما كانت، وعصبتها رسول الله ﷺ بثوب. لكن الجرح كان شديداً فلم ينجُ محمود بن مسلمة وتوفي بعد أيام قليلة. عندما جرح محمود، واسى النبي ﷺ أخاه محمد بن مسلمة قائلاً: إن قاتل أخيك سيلقى مصيره قريباً.

في ذلك اليوم الأول، تكبد المسلمون خسائر فادحة، حيث أُصيب خمسون مسلماً بسهام من الحصون. عند المساء، توجه رسول الله ﷺ إلى الرجيع وأمر الناس بالانضمام إليه. كان هذا هو الموقع الذي تم اختياره بناءً على مشورة الحباب، وأصبح موقعا مركزيا للمسلمين. وكما ذكر سابقاً، كان هذا أقوى حصون اليهود، وكان يقود الدفاع عنه مرحب، أشجع وأشهر محارب في خيبر، يساعده أخواه ياسر والحارث، اللذان لم يكونا أقل منه شجاعة وجرأة.

تشير الروايات إلى أن النبي ﷺ استمر في القتال لمدة عشرة أيام متواصلة. كان يخرج مصطحباً محمد بن مسلمة، ويترك عثمان مسؤولاً عن المعسكر. وعند المساء، كان يعود إلى نفس الموقع حيث كان يتم إحضار المسلمين الجرحى لتضميد جراحهم.

وفي أحداث هذه المعركة، نجد أيضاً ذكر مبارزة مرحب واستشهاد عامر بن الأكوع. وتفصيل ذلك أنه في أحد تلك الأيام، خرج مرحب، القائد اليهودي للحصن الذي لم يكن له نظير في الشجاعة والجرأة، من الحصن وبدأ يتحدى المسلمين، وهو يلوح بسيفه بكبرياء وغرور منشداً هذه الأبيات:

^٥ البيضة: الخوذة. (المترجم)

^٦ المغفر: درع يلبس تحت الخوذة لحماية الوجه. (المترجم)

^٧ القناة: الرمح. (المترجم)

قد علمت خبير أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلَّهَّب

وعندما سمع عامر بن الأكوع تحدي مرحب، خرج من الجيش إلى الميدان وأنشد هذه الأبيات:

قد علمت خبير أني عامر
شاكي السلاح بطل مغامر

(ومعناها: قد علمت خبير أنني عامر، المدجج بالسلاح، البطل المغامر الذي ينشد الشعر بلا خوف في خضم المخاطر الحربية)

ثم تواجه الاثنان وبدأ في مهاجمة بعضهما البعض. ضرب مرحب بسيفه، فصد عامر الضربة بدرعه، ثم انحنى سريعاً وضرب من الأسفل، ولكن لأن سيفه كان قصيراً، فبدلاً من أن يصيب مرحباً، ارتد السيف وأصاب عامراً نفسه، مما تسبب له في جرح عميق أدى إلى استشهاده.
كان هذا هو الشهيد الثاني في هذه المعركة، وقد دُفن الشهيدان في قبر واحد في الرجيع.

يقول سلمة بن الأكوع إنه عندما قُتل عمي عامر بن الأكوع بيده هو قال بعض الصحابة: حبطت أعمال عامر. فذهبتُ إلى النبي ﷺ باكياً وقلت: يا رسول الله حبطت أعمال عامر. قال ﷺ: "من قال ذلك؟". قلت: يقول بعض أصحابك. قال ﷺ: "كذَبَ مَنْ قَالَهُ إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ. إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلُهُ". (صحيح البخاري، كتاب المغازي)

وفي رواية أنه لم يولد في العرب ومشى على الأرض مثل عامر وإن له لأجرين، وقد كذب من قال ما سبق ذكره.

لقد قال النبي ﷺ وهو في الرجيع: كذب من قال ذلك وإن له لأجرين. ومن هنا ظل يرسل الصحابة إلى عشرة أيام متتالية لفتح حصن ناعم. إن فشل هذه المهمة عدة مرات وإصابة الصحابة بالجراح وشهادة صحابيين شجع اليهود أكثر. فقال رسول الله ﷺ ذات ليلة: "لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَيَّ يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ". (صحيح البخاري، كتاب المغازي)

قال بريدة: فبتنا طيبة أنفسنا أن يفتح غدا، وبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها. قال أبو هريرة قال عمر: فما أحببتُ الأمانة قط حتى كان يومئذ.

قال بريدة: فما منا رجل له من رسول الله ﷺ منزلة إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تناولت أناها، ورفعت رأسي لعلي أعطهاها.

وفي حديث سلمة وجابر: كان عليّ تخلف عن رسول الله ﷺ - في سفره إلى خيبر إلا أنه قلق بعد ذلك بشدة وجاء - لرمد شديد كان به لا يبصر. فلما سار رسول الله ﷺ قال عليّ في نفسه: كيف لي أن أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فلحق بالنيبي ﷺ. عندما أصبح النبي ﷺ وصلى الفجر وطلب الراية وقام وألقى الوعظ في الناس، وقال: "أين عليّ؟". قالوا: يشتكي عينيه، قال ﷺ: "فأرسلوا إليه". قال سلمة: فجئت به فقال له رسول الله ﷺ: "مالك؟". قال: رمدت حتى لا أبصر ما قدامي. قال ﷺ: "أدن مني". يقول عليّ: فوضع ﷺ رأسي عند حجره، ثم بزق في ألية يده فذلك بما عيني. قالوا: فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، فما وجعهما عليّ إلى يوم وفاته. ثم دعا النبي ﷺ لعليّ وأعطاه الراية.

لقد ذكر سيدنا المصلح الموعود ﷺ أيضا هذا الحادث وقال:

وفي يوم خيبر، سنحت لعليّ فرصة لنيل الشرف، حيث قال النبي ﷺ: "اليوم لأعطين من أحب الله وأحبه الله تعالى"، وأستودعُ السيف للذي فضّله الله. يقول عمر ﷺ: كنت موجودا في هذا المجلس وكنت أرفع رأسي حتى يراني رسول الله ﷺ فيعطيني إياه. لكنه يرى ويصمت. وأرفع رأسي مرة أخرى فينظر ويسكت حتى أتى عليّ وقد تشددت عيناه. قال النبي ﷺ: "تقدّم يا عليّ!" فلما وصل إليه بصق في عينيه، وقال: "أعفى الله عينيك. خذ هذا السيف الذي استودعك الله إياه".

وقال سيدنا المصلح الموعود ﷺ في مكان آخر:

ذات يوم أخبر الله رسول الله ﷺ أن فتح هذه المدينة مقدر على يد عليّ. فدعا ﷺ عليّا ﷺ صباح اليوم التالي وأعطاه الراية فهاجم عليّ الحصن مع جيش الصحابة. وعلى الرغم من أن اليهود كانوا متحصنين في الحصن، إلا أن الله أعطى عليّا وأصحابه الآخرين قوة في ذلك اليوم حتى فُتح الحصن الأول قبل المساء. فجاء عليّ مسرعا بالراية ووصل تحت الحصن ونصبها في وسط الحجارة.

قبل بشأن قتل الأعداء في رواية جابر ﷺ إن أول من خرج للمبارزة من حصون خيبر كان حارث، أخو مرحب. فقتله عليّ ﷺ، فعاد أصحاب حارث إلى الحصن. كذلك قُتل القائد اليهودي عامر، حيث خرج للمبارزة وكان رجلاً ضخماً الجثة. فخرج له عليّ ﷺ ووجه إليه عدة ضربات، لكن لم تؤثر أي منها. ثم ضربه عليّ ﷺ على ساقه فجلس، فقتله ﷺ وأخذ سلاحه. ثم هناك حادثة قتل قائد يهودي وهو ياسر الذي خرج طالبا للمبارزة، فخرج له محمد بن مسلمة وقتله. إذن قُتل ياسر أيضا أخو مرحب. قال ابن إسحاق أن ياسر برز، وهو أخو مرحب، وكان يرتجز. وكتب محمد بن عمر أنه كان الأقوى بينهم وكان لديه أسلحة حربية يدوس بها الناس. فخرج إليه عليّ ﷺ، فقال له الزبير بن العوام: أقسم أنك لن تقف بيني وبينه. فقال الزبير: سأقاتله. فتراجع عليّ ﷺ. وعندما خرج الزبير ﷺ نحو الكافر، قالت أمه صفية: يا رسول الله، سيقتل ابني.

فقال رسول الله ﷺ: "كلا بل ابنك يقتله إن شاء الله". فخرج الزبير إليه مرتجزا، فتقاتلا، فقتله الزبير.
ثم خرج من الحصن مرحباً أكبر مقاتلي خيبر شجاعاً وحنكةً مدججا بالسلاح وهو يرتجز:
قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي مَرْحَبٌ
شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فبارزه عليٌّ ﷺ لابساً جبة حمراء فاستل سيفه وارتجز بالأبيات التالية:
أَنَا الَّذِي سَمَّنِي أُمِّي حَيْدَرَهُ
كَلَيْتَ غَابَاتُ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهُ
أَوْ فِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهُ

مفهوم هذا المثل العربي يماثل قولنا: سوف أرد عليك بكيلو وربع مقابل كيلو، أو: ردّ عليه بالحجر مقابل اللبنة. والصاع يساوي ثلاثة كيلوغرامات تقريبا، أما السندرة فمكيال أوسع من الصاع بكثير.
يقول الراوي: ثم ضرب عليٌّ ﷺ بسيفه رأس مرحبٍ فقتله. ثم كان الفتح على يديه ﷺ.
وفي رواية تقاتل عليٌّ ﷺ ومرحب. تقدم عليٌّ وضرب مرحباً بسيفه ضربة شقت خوذته ورأسه حتى وصل السيف إلى أسنانه. ثم شن القوم الغارة مع عليٌّ حتى فتح الله الحصن على يده.

وقال بعض أصحاب السير إن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحبا. فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال خرج مرحبٌ من الحصن وجمع سلاحه وأخذ يرتجز، فقال رسول الله ﷺ: "من لهذا؟". فقال محمد بن مسلمة: "أنا له يا رسول الله، والله لقد قتل أخي بالأمس". فقال رسول الله ﷺ: "فقم إليه، اللهم أعنه عليه". فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية (أي قديمة)، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع بسيفه ما دونه حتى برز كل واحد منهما لصاحبه. ثم حمل مرحب علي محمد فضربه، فاتقى بالدرقة، فوقع سيف مرحب فيها فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

كتب الحافظ ابن حجر شارح البخاري: قال ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي وغيرهم من أهل السير إن الذي قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة. والحق أن الذي قتله محمد بن مسلمة هو الحارث أخو مرحب، فاشتبه الأمر على بعض الرواة، وذكروا اسم مرحب بدلا من الحارث، وإن لم يكن الأمر كذلك فإن ما في صحيح مسلم مقدم على ما سواه، حيث ورد فيه عن سلمة بن الأكوع أن عليا ﷺ قتل مرحبا. ورواية صحيح مسلم مقدمة لسبيين: الأول أنها أصح سندا، والثاني أن جابر ﷺ -الذي روى أن محمد بن مسلمة قتل مرحبا- لم يشهد غزوة خيبر.

وليكن معلوماً أيضاً أن كتب التاريخ والسيرة قد اختلفت بشأن الحصن الذي حصلت فيه مبارزة مرحب وغيره من اليهود وقتلهم. البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الصحاح الستة لم تذكر اسم أي حصن بهذا الصدد، وكذلك بعض كتب السير مثل ابن هشام وطبقات ابن سعد وشرح الزرقاني وغيرها قد ذكرت هذه الوقائع ولكنها لم تخصص أي حصن. غير أن بعض المصادر ذكرت أن هذه الأحداث وقعت في حصن القموص، بينما ورد في بعضها أن وقعت في حصن ناعم. على كل حال، ظل النبي ﷺ يُغير مع المسلمين على هذا الحصن حتى فتحه الله لهم في اليوم العاشر.

ولم يذكر المؤرخون أي غنائم وسلاح حصل عليها المسلمون عند فتح قلعة ناعم التي كانت أمنع قلاع خيبر. من الممكن أن المسلمين لم يغنموا عند فتحه أي شيء يذكر، لأن اليهود كانوا قد نقلوا نساءهم وأطفالهم إلى قلاعهم الأخرى سلفاً استعداداً للطوارئ، ولما انهزموا وعجزوا عن صد هجمات المسلمين على قلعة ناعم انتقلوا هم أيضاً إلى قلعة الصعب بن معاذ، ولم يقع أي منهم أسيراً في أيدي المسلمين في المعارك التي جرت في تلك القلعة. وسوف أذكر في المستقبل -إن شاء الله- مزيداً من تفاصيل الأحداث التي جرت في الحصون الأخرى.

وكما هي عادتي أن أحثكم دوماً على الدعاء، فأدعوكم إلى أن تدعوا لتحسن أوضاع العالم، وأوضاع المسلمين خاصة، فادعوا كثيراً للمسلمين عموماً وللفلسطينيين خاصة. يبدو أن الفلسطينيين مسرورون بأن الهدنة قد حصلت وسوف تؤدي إلى تحسن الظروف، ولكن الواقع أن الأوضاع تزداد سوءاً على سوء. إن استراتيجية الرئيس الأمريكي الجديد وخطتها قد بلغت منتهى الظلم. كان الأمريكان يقولون من قبل إن هذا الرئيس ليس خطيراً لبلدنا كما لن يتدخل في أمور البلاد الأخرى، ولكنه قد صار الآن خطراً على العالم كله. رحم الله الفلسطينيين، ورحم أهل الدنيا وحماهم من خطره. على البلاد العربية خاصة أن تفتح عيونها وأن تسعى للاتحاد إذ لا مناص من ذلك، وإلا فليست فلسطين فحسب، بل كل البلاد العربية ستواجه نكبات شديدة. لا شك أن أصوات بعض غير المسلمين بدأت ترتفع بحق الفلسطينيين ضد المظالم المنصبة عليهم، ولكن القويّ سكران كلياً في هذا الوقت بسكر قوته، ولا يستمع لأحد. لذا فإن المسلمين بأمر الحاجة إلى التوجه إلى الدعاء، ومن واجبنا أن ندعو لهم، إذ ليس بأيدينا أي قوة أخرى. كذلك ادعوا للأحمديين في باكستان أيضاً، فإن أوضاعهم تزداد سوءاً من حين لآخر بسبب المعارضة. وادعوا للأحمديين في بنغلاديش أيضاً بأن يحميهم الله تعالى من كل أنواع المعارضة والهجمات. وادعوا للمظلومين في كل مكان وللأحمديين أيضاً بأن يحميهم الله بحمايته وأمانه وأن يلهم أهل الدنيا الصواب، ويجعلهم يهتمون بإرساء دعائم الأمن والسلام في العالم. وفقنا الله تعالى للدعوات.
